

ذات الثوب الأرجواني

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

— ١ —

(ملاحظة — الكلام ليس شخصياً وإن كان
بلسان التكلم ، وذات الثوب المذكورة هنا
لا وجود لها إلا في الخيال)

لم يكن الأرجواني ثوبها الوحيد — وكيف يمكن أن يكون ؟ — ولا كان كل ما تلبس حين تبرز ، ولكنه كان أحلى ما تكتسى وأشبهه بخديها — في رأى العين ، وفي إحساس القلب أيضاً — وقد رأيتها في ثياب شتى وأردية متنوعة — في الشفوف والأفواف ، وفي السبايب الضلعة ، والطارف المربعة ، وفيها عليه من الخطوط كأفويق السهم ، ومن النقوش كهيئة الطير ، ومن الصور كرمس الميون ، وفي الأبيض والأخضر والأزرق ، ولكنه لم يقع من نفسى شيء من هذا كله كموقع هذا الثوب الأرجواني الذى لا نقش فيه ولا صور ولا ترايع ولا تداوير ولا تضاليع ولا خطوط ولا وشى ولا نعمة . ومن المسير أن يملل المرء هذا الثوب بوقع ثوب معين ؟ وأحسب أنى لو قلت ما يجوز فى خاطرى ساعة أراها بادية فيه — أو مجلوة على الأصح — لظننى القارى عريداً مستهتكا ، وما أنا من هذا فى قليل ولا كثير . وليصدق القارى أو لا يصدق ، فإيعننى ماذا يظن بى . وقدما قلت — أيام كنت أقول الشعر — :
قد أفضل الشيء لا أبني به أملا ولا أبالي الورى ماذا يقولونا
همى ضميرى — فإن أَرْضِيته فملى رأى العباد سلام الاستخفينا
وما زلت كما كنت يوم قلت هذا ، بل لملى أسرفت فى قلة
المبالاة ، حتى صرت إلى الاستخفاف المطلق

ولأرجع إلى ذات الثوب الأرجواني ، فإنها أحق بالكلام وأولى به منى ، وكَمَ قلت لنفسي وأنا أراعيها : « بأى شيء ياترى يمكن أن تتوسل إلى مثلها ؟ لا أنت جميل ولا محتمل ولا لك مال ... ولا فى رأسك هذا عقل ... أو ليس لو كنت تمقل أما كنت حرياً بالانصراف عن هذا المبعث ؟ ماذا

ترجو منها ؟ ... فى أى شيء تطمع ؟ ... إنها دونك سناً ، وأنت دونها فى كل شيء ... فلا خير فيك لها أو لمثلها »

ثم أعود فأقول لنفسي : « عن أى شيء تتكلم يا هذا ؟ ... الجلال ؟ .. سبحان الله العظيم ! إن الجلال هو سلاح المرأة ، فحفظها منه ينبغي أن يكون موفوراً ، وإلا زهد فيها الرجال ، إذ كان لا مزية لها غير ذلك ... ولكن الرجل شيء آخر ، وسلاحه فى الحياة قوته وقدرته على الكفاح ... لا هذه الأصباغ والألوان التى لا تلبث أن تحول .. فدع الجلال ، فإنه شيء يطلب فى المرأة ولا يطلب فى الرجل ... وماذا غيره ؟ ... إنك غير محتمل ؟ ؟ .. لماذا بالله ؟ ؟ لماذا تظلم نفسك وتبخسها هذا البخس ؟ .. ومع ذلك عذا شيء يترك لتقدير الغير ولا يجوز أن تكون أنت الحكم فيه ... معنى ماذا ؟ ... أترانى أهرب بهذه السفسة من التقدير ؟ ... لا ... ولكنى ينقصنى أن أعرف الرجل الذى يستحيل أن يهتدى إلى امرأة تحبه ، بهما بلغ من رأى الرجال فيه أو من سوء رأيه هو فى نفسه ... أو لم تسمع بالثل القائل : « كل فولة لها كيال ؟ » ، ألسنا نقول ذلك كلما رأينا رجلاً ثقيلاً تحبه امرأة جميلة كانت تستطيع أن تجد ألف عاشق لها غير هذا الجلف أو السمج ، أو ماشئت غير ذلك من الأوصاف التى لا تهون على النفس ؟ ومع ذلك هذه مبالغة ، فما أنا بمحيث أحتاج إلى التعزى بأن كل فولة لها كيال ... أعود بالله ... بقى المال والعقل ... والكلام فى هذا كلام فارغ ... فليس من الضروري أن يكون المرء ندّاً لروتشيلد لكى تحبه المرأة بهما بلغ من جمالها . وليت من يدرى بماذا فاز روتشيلد من حب الجليات فى حياته ؟ ومتى كان المال يشتري الحب ؟ كذلك ليس من الضروري أن يكون المرء سقراطاً أو غيره من أصحاب العقول الضخمة ليكون محبوباً .. ومع ذلك سل سقراط عن تعذيب امرأته له ، وتنقيصها حياته ، وتسويدها عيشه ! ... ماذا ترى نغمه عقله وفلسفته ؟ ... لا ياسيدى ! الحب شيء لا ضابط له إلا تقدير المرأة للرجل الذى تحس بفرزتها أنه أصلح لها من سواء ؛ وقد تكون غططة ، ولكن هذا هو العامل الوجه لها فى اختيارها ... إذن هناك أمل ؟ ... بالطبع ! ... ما هذه الحارية ! ... إنها ولا شك عادة التفكير الطويل فى كل

أمر... وهي عادة تضيف الثقة بالنفس ، وتفقدتها الشجاعة اللازمة للأقدام »

ودارت في نفسى كلمة الاقدام بعد أن نطقت بها - في سرى ، وهل أنا مجنون حتى أتكلم بصوت عال يسمعه من في البيت فتكون النتيجة أن يخرجوا بيتى ؟ - فلم يسمنى إلا أن أسأل نفسى : « الاقدام على أى شىء ؟ . . هذه فتاة أراها - وترانى هى أيضاً فإسمعها إلا أن ترى ، أعنى ترانى - ومن طول ما اعتدت أن أراها صرت أحس أنها أصبحت تشغل مكاناً في نفسى .. منالطة !! كأن كل الذنب في حبها أنى رأيها مراراً .. ولولا ذلك لما حفلت نفسى بها ؟ ! ! أهذا ما أريد أن أقوله أو أدعيه ؟ ؟ لا ياسيدى ! ! يحسن ما دمت أتأجى نفسى أن أكون صريحاً معها ، وإلا فما الفرق بين نجوى النفس ومحادثة الأغراب ؟ ؟ . وأعود إلى الاقدام . . وأسأل على أى شىء . . على أى شىء ؟ ؟ أو ليس الامر بديهيًا ؟ . تشير اليها . . تظهر لها هذا الحب . . كيف بالله تريد منها أن تعرف أنك تحبها وأنتك تروم أن تبادلها هذا الحب ؟ ! « تشم على ظهر يدها » كما يقول المثل العامى ؟ ؟ . حسن . . وصحيح هذا بلا شك ، ولكن ألا يمكن أن تعرف من نظرة العين وحدها ؟ ؟ بلى ! . وإن للمرأة لقدرة على الاحساس بشعور الرجال نحوها ، ولو كان بينهم وبينها ألف سور وسور . . ما هذه البالغة ؟ . مبالغة ؟ ! ألم أسأل امرأة هذا السؤال فكان جوابها أنى أكون سائرة في الطريق فأشعر بنوع النظرة التى يرمى بها من يتفق أن يكون سائراً خلقى ؟ . فاذا أسقطنا المبالغة من هذا الكلام كان مؤداه أن المرأة يسمعا أن تدرك أنحبها أولاً تحبها من نظرة عينك ؟ . بل هذا يسمع أى انسان لا المرأة وحدها . . ولكن إذا اكتفينا بالنظر ودلالته ، فاذا يكون بعد ذلك ؟ ! هل تروم منها أن تبدئك هى بالكلام وتقول لك : « ياسيدى إني أعرف أنك تحبني فاما أشكرك على تشريفى بهذا الحب الذى لا أستحقه ، وأؤكد لك أنى لست أهلاً لحب رجل عظيم مثلك ؟ سبحان الله العظيم . . ما هذا البرود ؟ . إن الرجل حين يحب امرأة يكون معنى هذا أنه يريد أن يستولى عليها - هذا إذا كان رجلاً عادياً سليماً لا مريضاً - والرغبة في الاستيلاء تجعل من واجبه هو أن يسمي

للتغلب على ما عسى أن يكون هناك من مقاومة ، وليس ثم فرق بين غزو قلب وغزو مدينة ؛ والحقيقة الجوهرية في كلتا الحالتين واحدة ، وإن اختلفت المظاهر ؛ وكما أن هناك مدناً لا يكاد الجيش يزحف عليها حتى تسرع الى التسليم ، كذلك نجد قلوباً لا تكاد العين تفوق اليها سهماً حتى تدعن وتفتح بابه . غير أن هناك قلوباً لا يسهل إخضاعها ولا بد من الكسر عليها ، وليست كل امرأة ككل امرأة ، فالذى يجدى مع هذه قد لا يجدى مع تلك لتفاوت الأمزجة واختلاف الطباع ؛ وما أظن صاحبنا ذات الثوب الارجوانى بالمسيرة ، وإن لى لموانئها عليها من شبابها وغاراتها ومن حياة العزلة والحرمان التى تحياها . والشباب هو زمن الفورة والاضطراب في العواطف ، والحرمان والعزلة يجعلان العواطف الطبيعية أشد استعداداً للاضطراب السريع والتسمر لأقل اتصال . وهل طيبى ألا تعرف الحياة فتاة في عنقوان صباها إلا من النافذة وإلا من كتاب - أو رواية - تقرأه وهى في الشرفة ؟ . ماذا تعرف هذه عن الحياة ؟ . وماذا خبرت من أحوال الناس وأساليبهم ؟ . كيف تستطيع أن تقاوم ما تهدده ؟ بل كيف تعرف أنها مهددة بشىء حتى تفكر في المقاومة ؟ ؟ . هذه هى في الشرفة واقفة تنتظر من هذا الارتفاع الذى لا يمكن أن تميتين منه شيئاً . . لماذا تلبس هذا الثوب الارجوانى الأنيق الذى يبدى للعين خطوط جسمها جميعاً وانحناءاته كلها ويجلو مفاتها ولا يحجب شيئاً منها ؟ . أليست تلبسه لتبدو فيه كأجل ما تكون وفي أفقن صورة ؟ . تعرض محاسنها هذا المرض البديع ولا تجد في مكانها العالى هذا من يقدرها ! ! . والناس لا يشعرون بالحرمان منها لأن غيرها في الدنيا كثيرات . . . ولكن هى . . . هى . . . أليس المقول - وهى تنظر إلى الرائيين والرائحات والفادين والناديات - أن تشعر شعوراً حاداً بما هو مكتوب عليها من الحرمان ؟ . . ومع هذا الشعور المستمر ماذا تقدر أن تكون النتيجة إذا اتفق أن اتصلت أسبابها أو هى اتصال بأسباب رجل يصفو بوده إليها وتأنس هى منه هذا الليل ؟ . يخفق قلبها على الرغم منها . . وتلقى نفسها معنية بهذا الرجل الذى يولبها العناية التى حرمتها في حياتها ، ويظهر لها الحب الذى لا يستطيع أن يظهره لها أخوها

في جانب غير هذا من البيت ، بل الاثنان على صف واحد ، وليست إحداها بأوسع أو أرق أو أحلى ، ولكنها تنتقل من هذه الى تلك لغير حكمة ظاهرة ، إلا أنها تريد أن تفهمك أنها لا تحب أن تراها ولا ترانح لطول تحديثك فيها . . . وليس هذا بصحيح ، ولكن المرأة هكذا أبدا . . . ونجلس في الشرفة على الكرسي وفي يدها الكتاب وتعمد أن توليك ظهرها وأن تجعل وجهها الى ناحية أخرى لتوهمك أنها غير راغبة فيما ترميها به من النظرات . . . ولا تقرأ شيئاً لأنها لا تقلب الصفحة إذ كان عقلمها مشغولاً بك وهل لا تزال واقفاً ؟ . وهل تراك تنظر الى غيرها ؟ . وهل أنت ضاحك أو عابس ؟ . وما ذا كان وقع هذا الاعراض في نفسك ؟ . هل آلمك جداً ؟ . هل أغضبك ؟ . أو زادك تعلقاً بها واقبالاً عليها ؟ . وتعد سافها وتهزها لثقت بنظرك الى جالها . وتهض واقفة وتنحن لتضع الكتاب على الكرسي ثم تخرج من الشرفة — لا حاجة — بل لتريك خط ظهرها وبراعته وفنته . . . وترفع رأسها قليلاً — وعلى سهل — حتى تماذى عينها حافة الشرفة لتتأمل أباقي أنت أم مللت وذهبت ؟ ؟ . وتراك تهباً للخروج فتختفي وعينها عليك من وراء الأستار — وفي ظنها أنك لا تفطن الى ذلك — فإذا انحدرت الى الشارع برزت في الشرفة لتلقى عليك نظرة أخيرة . . . ويحيى الليل فتجلس في الظلام وأنت في النور لتراك ولا تراها . . . وإذا جاء وقت النوم أغلقت باب الشرفة بمنف لا تدعو إليه أى ضرورة سوى أنها تريد أن تؤذئك بذلك

هذه حياة المسكينة وهذا ما يحوجها اليه ما هي فيه من العزلة والحرمان الدائم . وأى قدرة لثلاثها أو عسر يمكن أن يكون فيها الا عسر السجن . . . كان الله في عونها فاني أراني أعطف عليها وأرثي لها في محنتها هذه أكثر مما أراني أحبها . وسلام عليها
ابراهيم عبد القادر المازني

مجموعات الرسائل

تتم مجموعة السنة الأولى بمجلد ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
تتم مجموعة السنة الثانية (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
تتم مجموعة السنة الثالثة (في مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد في الخارج ١٥ قرشاً

أو أبوها لأنه من نوع آخر ، ولا يبنى عنه حب الأم والأخت ومن إليهما . . . وتشغل خواطرها بالتفكير في هذا الانسان الذي لا يفتأ بنظر إليها وفي عينيه نور الحب . . . وقد يكون كاذباً أو مخادعاً ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف هذا لأنها غريبة لم تجرب الناس ولم تعرف الحياة إلا من نافذة بيتها . . . قراها تبدو في حفل من الزينة — ولم تكن تعنى بأمر زينتها كل هذه العناية — وتكون واقفة مع صاحبة لها تحبها فتحول عينها إليك وتخالسك النظر . . . ويكون الكلام عادياً جداً لا يستدعي كل هذه الحركة ولا يستوجب هذه الضحكات المتوالية التي يميل لها الجسم كل ميل . . . ولا تزال وهي تتكلم تهز رأسها وتسوى شعرها بيديها وتخرج وتدخل ولا شيء هنالك تدخل له ، ولكنه الشعور المتقد القلق ، والمواطف المشبوبة لأنها محبوسة تريد أن تنفجر من طول الكبت . . . وهذا الدبوس الذي تشيله ومحطه لم يكن قلقاً في موضعه من شعرها ولكن نفسها هي القلقة ، فيدها لا تهدأ ولا تسكن ولا تستطيع أن تكف عن الحركة . . . وهذا الثوب الجديد الذي لم يفصل والذي تنشره في الشرفة لرائحتها كان في وسعها أن تعرضه عليها في الغرفة ولكنها حركة عصبية تنشئ بالاضطراب النفسى . . . وهذا النبات الذي اتصل بعضه ببعض على جانب الشرفة والذي يحجب من فيها عن عيون الجيران هل تظن أنه يحتاج إلى تسوية ؟ . لا . ولكن يدها مع ذلك لا تزال وأنت ناظر إليها تبث بأوراقه النصيرة وقد تنظر إليك عن عرض وهي تفعل ذلك . . . ولا تحسب أنها تفاذك فافعل شيئاً من ذلك ولكنه لا يسمعها إلا أن تنظر إليك خلسة من حين إلى حين ، لأنه يسرها أن تراك ناظراً إليها وأن تعلم أنك مشغول بها حتى ولو أبدت الضجر من ذلك أحياناً . وإذا لم ينظر الرجل إلى المرأة فإذا يكون مصيرها ؟ . وما ذا عسى أن تصنع بنفسها ! . . . وهي تقيب عنك وتحتجب — يوماً كاملاً أو ساعات — لظنها أن احتجاجها يسر انذاراً في صدرك ويرقى بالسنة اللبيب الى السماء . وهي تقضى على نفسها بهذا الاحتجاب وخواطرها كلها منك وان كانت تكلم أمها وأخاها وأباها كأنما خلت بها اللهيات الحاضرة النافذة عن كل ذكر لك . وليست المرأة بشيء إذا لم تسكن فادرة على هذه المخادعة البريئة . والشرفة الأخرى لبست